لقد غدونا ألماً صافياً

رسالة من الدكتورة يمنى العيد إلى الدكتور عبدالعزيز المقالح.

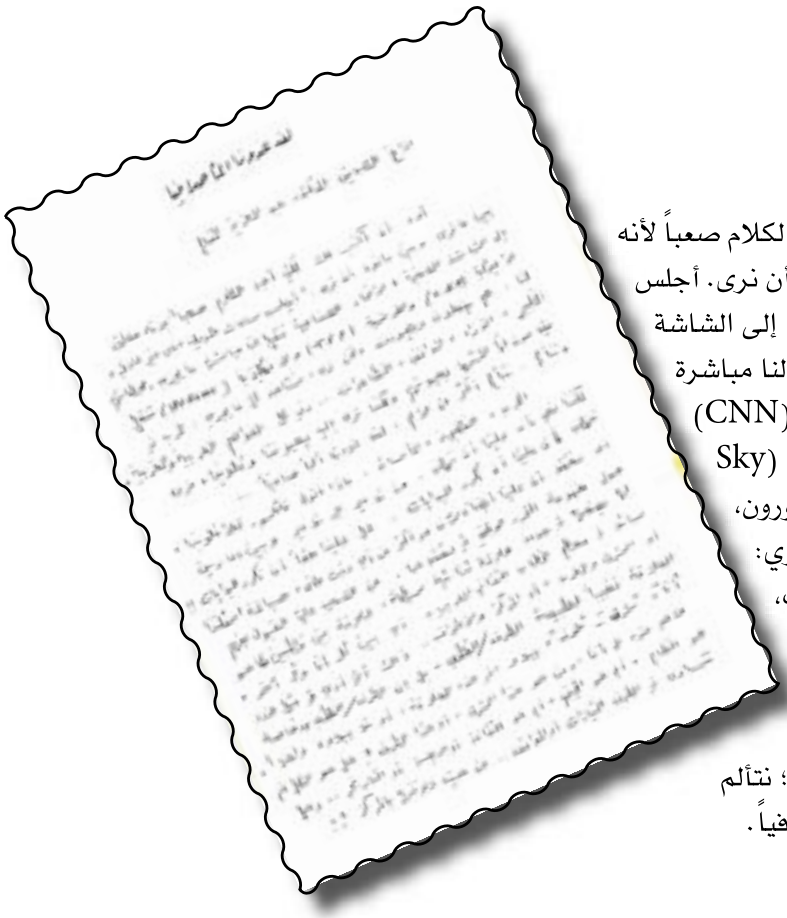

الأخ الصديق الدكتور/
عبدالعزيز المقالح

أود أن أكتب لك، لكني أجد الكلام صعباً لأنه معلق بين ما نرى وبين ما نود أن نرى. أجلس ساعات طويلة على غير عادتي، إلى الشاشة الصغيرة، الأقمار الصناعية تنقل لنا مباشرة ما يجري. محطاتهم الأميركية (CNN) والفرنسية (TEY) والإنكليزية (Sky News) تنقل لنا. هم يفعلون ويصورون، ونحن نرى، نشاهد كل ما يجري: الحرب في الخليج، الآراء، المواقف، التظاهرات... وفي كل العواصم العربية والغربية. يقدمون لنا المشهد بعيونهم، ولكننا ننظر إليه بعيوننا وقلوبنا، نرى ونتألم؛ نتألم أكثر من الألم. لقد غدونا ألماً صافياً.

من اليسار: خالد الرويشان، د. عبدالعزيز المقالح، د. يمنى العيد، جودت فخر الدين وشوقي بزيع.

الحــرب، الفضيحة، المأســاة... مــاذا أقول؟ فالكسور تملأ قلوبنا، لكننا نعي أن علينا أن ننهض من تدميــر إلى تدمير، وبين دماريــن ننهض، كأن علينــا أن نكرر البدايات. هل علينــا حقاً أن نكرر البدايــات! ألا تعتقد أن علينا أيضاً، الآن وأكثر من أي وقت مضى، صياغة أسئلتنا حول مفهوم التحرر الوطني في تعقدها!؟ من الصعب عليّ القبول بفهم لها يضعها في حدود علاقة ثنائية بسيطة؛ علاقة بــين قطبين، كما هو ســائد في معظــم الخطاب الثقافــي العربي، أي بــين الـ «أنــا» والـ«آخر»، أو الشــرق والغرب، أو المركــز والأطراف... ذلك أني أرى في مثل هــذه العلاقة تغييباً لطبيعة الطرف/ القطــب، بل إن الطرف/ القطــب، وخاصة «أنا»- «شــرق»- «طرف»، يبدو في هــذه العلاقة، أو قد يبــدو، واحداً مما هي هذه الـ«أنــا»، ومن هو هذا الشــرق، أو هــذا الطرف؟ هــل هو الــكل أم هو النظــام أم هو المجتمع أم هو الثقافة أو السياســة أو التاريخ...؟ وهل تتساوى في الطرف التيارات أو المواقف... من حيث علاقتها بالمركز؟!

ألا تعتقــد أننــا بحاجــة إلى فكــر نقدي (ولا أقــول إلى نقد أدبي)؟ ألا ترى إلى أهميته، وأهمية تأمين شــروط لممارســة مثل هذا الفكر، فلا نقع في الارتجال ونســمي ذلــك ديمقراطية؟ ذلك أن ممارســة الفكر النقدي هي في الواقع، ممارســة المعرفة؛ المعرفة في متغيرها الذي هو أيضاً متغير معرفــي. ولئن كان للمعرفة طابع القناعة، أو كانت المعرفة تؤدي إلى القناعة، فإنها ليست ثابتة، ليست

ألا تعتقد أننا بحاجة إلى فكر نقدي (ولا أقول إلى نقد أدبي)؟ ألا ترى إلى أهميته، وأهمية تأمين شروط لممارسة مثل هذا الفكر، فلا نقع في الارتجال ونسمي ذلك ديمقراطية؟

مســـاحة أبدية بل وظيفية تاريخية. ونحن معنيون بإنتاجها كي لا نقع في ســـهولة القبول وفوضاه أو عفويتـــه. نحن مدعوون لإنتـــاج متغيراتنا المعرفية وفق خصوصية تركيباتنـــا الاجتماعية، وهذا عمل شـــاق وطويل ويحتاج إلى إخلاص حقيقي، وجهد جماعي، وتضحية، و...

إعذرني على هذا الكلام الذي ليس مجاله في هذه الرســـالة ولا أوانه في هذا الظرف التاريخي الفادح، لكني طافحة بالقهر من هذا الذي أســـميه الجالس على أعلى كرســـي فوق كرتنـــا الأرضية، أمّنا الحزينـــة، ويريد أن يفرض علينا كل ما يخدم مصالحـــه، وفوقها إذلالنا. أشـــعر بأننا نقف على حافـــة الهاوية. ولكني أعـــي أننا نملك القدرة على عدم الســـقوط، وأن بإمكاننا أن نتجاوز البدايات، حلقة التدميـــر والنهوض المفرغـــة، لنراكم باتجاه تطورنـــا الذي يحقـــق ذواتنا، أي تحررنـــا الفعلي. هـــل بإمكاننا أن ننظر إلى القصر لنرى بوضوح ما يشدنا إليه، ما يدمرنا كلما أعلينا البناء؟

نحن هنا، أو كثير منا، مصابون بأكثر من المرارة. شخصياً لم أســـتطع أن أكتب سوى مقالة واحدة. حين شاهدت مجزرة العامرية لم أقوَ على الصمت، فكتبـــت وأشـــرت إلى القاتـــل الذي يبتســـم، هذا

> الكسور تملأ قلوبنا، لكننا نعي أن علينا أن ننهض من تدمير إلى تدمير، وبين دمارين ننهض، كأن علينا أن نكرر البدايات. هل علينا حقاً أن نكرر البدايات!؟

> نحن مدعوون لإنتاج متغيراتنا المعرفية وفق خصوصية تركيباتنا الاجتماعية، وهذا عمل شاق وطويل ويحتاج إلى إخلاص حقيقي، وجهد جماعي، وتضحية، و...

الـــذي يجلس فوق أعلى كرســـي ويعمل على قتلنا. ونشـــرت مقالتي في جريدة «السفير» التي نشرت باســـتمرار مقالات لأكثر من أديـــب وكاتب، مُدينةً الغزو الأمريكي.

في اتحاد الكتاب شكّلنا لجنة متابعة، وأصدرنا أكثر من بيان، ووجهنا أكثر من رسالة تستنكر وتدين وتفضـــح الأهداف البعيدة، وتطالـــب بإيقاف هذه الحرب المبطنة بأهدافها. رسالة إلى الأمين العام، رسالة إلى الكتّاب والمثقفين الغربيين، ورسائل إلى هيئات عربية وعالمية عدة.

مـــاذا أقول لكم في صنعاء؟ مـــاذا أخبركم عنا هنا في بيروت وهي تنتقل من دمارها إلى صمتها؟! ولكنـــا نود أن نقـــول... نقول، وســـنعمل كي يبقى للقول قدرته وفاعليته، فالثقافي يبدو اليوم هاماً.. وتأمين شرطة هو الأهم.

لكن شرط الثقافي والعمل على تأمينه (النضال) قد ينســـينا الثقافي نفسه، وهنا الخطورة. والدرب طويل، طويل... والحقيقة لا تموت.

● بيروت/١٩٩١/٢/٢٨

إشـــارة

رسـالة الأسـتاذة الدكتورة يمنى العيد تمثل دون شـك صوتاً عربياً شديد الحزن والنقاء وفي ذكـرى مناسـبة هـي الأوجع على قلـب كل عربي، تلك هي مرور خمس سـنوات قاسـية عجاف على سـقوط بغداد واحتـلال العراق، ذلك الاحتلال الذي بدأ مع الغـزو الذي قادته الولايات المتحـدة وحلفاؤهـا في مطلع عام ١٩٩١، زمن كتابة هذه الرسـالة، والذي اسـتمر احتلالاً غير مباشـر لمدة ثلاثة عشـر عاماً قبل أن يتم الاجتياح الأخير ويبسـط الاحتلال نفوذه على هذا البلـد العربـي العظيم تحـت ذرائع ومبررات عديدة لـم يصمد منها سـوى مبررين اثنين هما مبرر الاستيلاء على النفط، والدفاع عن الكيان الصهيوني الحليف الأقرب والحميم إلى قلب الإدارة الأمريكية.

عمر هذه الرسـالة إذاً، سـبعة عشـر عاماً بالتمام والكمـال. وقد بعثتها الدكتـورة يمنى العيد أثنـاء الغـزو الأول للعـراق، والـذي تم فـي مطلـع عـام ١٩٩١ وتوقـف بعد أن نجح فـي تدمير العمـود الفقـري للجيـش العربـي في العـراق، وكان تمهيـداً للاحتلال الذي بـدأ قبل خمس سـنوات (٢٠٠٣). ومعلوم أن الولايات المتحدة كانت ومن قبلها الكيان الإسـرائيلي يخشيان من بنـاء جيـش قوي في الوطن العربي أو الأقطار الإسـلامية المجاورة، لما يشـكله ذلك من تهديد مباشـر للوجـود الصهيونـي في المنطقـة. وكان البيت الأبيض قد نجح في أوائـل الثمانينيات فـي إشـعال نيران الخلافات الخامدة بين العـرب والجارة القريبة إيران، وفي اسـتدراج العراق وإيران إلى حرب طاحنة ظن أن وقودها سيكون الجيشين الإيراني والعراقي. واستمرت الحرب التـي بـلا مبرر بين البلدين الجارين ثماني سـنوات أكلت الأخضر واليابس والتهمت عشـرات الآلاف مـن الجنـود والضحايا المدنيـين والثروات والبنـى الاقتصادية والعمرانيـة، ولكنها لم تحقـق الغـرض الذي هدفت إليه الإدارة الأمريكية يومئذ؛ فقد اسـتفاد الجيشـان من الحرب خبرة وقوة، ومكنتهما من تعلم دروس جديدة في فن القتال، مما زاد في هلع الكيان الصهيوني وزاد غيـظ الإدارة الراعيـة والداعمة لهذا الكيان، الأمر الـذي أدى إلى افتعال خلاف حاد بين الجارتـين العربيتين الكويت والعراق، واسـتغلال نتائـج الخلاف، الذي دفع إلى دخول الجيش العراقـي إلـى الكويت، لتدميره من هنـاك والقضاء على إمكاناته في حـرب كان أفظعها تلك النتائج التي أسـفرت عنها، ولعل أقلها الانقسـام الذي تم داخل العائلة العربية والذي استمر يتصاعد ويكتسب المزيد من الشروخ والانشقاقات إلى أن وصل إلى وصل ما إليه الآن.

رسالة الدكتورة يمنى بوضوحها وبصدق المشاعر التي تعبر عنها ليست في حاجة إلى شرح أو تعليق، وكم كانت عميقة وصادقة في تصوراتها لما كان يحمله ذلك الغزو المشؤوم وما يبعثه في النفوس النبيلة من قلق على المصير وشعور مرير بما ينتظر العرب من مفاجآت هي في حكم الواقع المعاش! ومع كل ذلك فإن الرسالة لا تخلو من خيوط ضوء ومن تفاؤل لا بد أن يسحب نفسـه على الظروف الحالية التي احتشـدت بالمقاومة والتحدي الصلب للاحتلال الذي ظل ثلاثة عشر عاماً يدرس الاحتمالات قبل أن يغامر في الاستيلاء على العراق وآبار نفطه وقتل مليـون مـن أبنائه وتشـريد أربعة ملايين، واتسـاع دائرة الدم والتدمير وتمزيـق أواصر القربى والمواطنـة وتعميـق الخلافات المذهبية والإثنية... إلى آخر ما في جعبة احتلال يريد أن يطيل أمد بقائه في بلد يتمتع بأكبر مخزون نفطي في العالم.

شكراً وأزكى تحية للناقدة الرائية يمنى التي تخشى على الثقافة العربية من الدبابات خوفها على الانسان.

■ «غيمان»